مجلة كلية
الدعوة الإسلامية
مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة

العدد
الخامس عشر
1998

1428 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم 1998 أفرنجي

نظرة إسلامية في مبادئ الأخلاق الطبية

بقلم ي. الحق
قسم الأمراض الباطنة، جامعة آغا خان،
كراتشي الباكستان

الدكتور: سالم العريفي بشيه
جامعة آغا خان - قسم الأمراض الباطنة

مقدمة:

إن موضوع الأخلاق والفضائل واسع ومتعدد الأوجه. ولكن باختصار يمكن تعريفه بأنه يختص بمعالجة الأمور المعنوية من كل مسألة، والأخلاق هنا تفيد الاهتمام بالخير والشر في الشخصية والمسلك وبالتمييز بين الصواب والخطأ، وهي بذلك تكون المنظمة لسلوك الفرد. وتنخرط الأخلاقيات في نظام القِيَم لتقييم المبادئ والمُثُل العليا لتقدير كل ما هو نافع ومهم في الحياة، ويحتاج تكوين النظم الأخلاقية وتطوير القِيَم المعنوية إلى القدرة الداخلية على محاسبة النفس والتقييم والتقويم الذاتي، ومن ثَمَّ توجد حاجة أبدية إلى الدين لتمكين هذه القدرات الداخلية من أن تكون القالب الذي يشكل الشخص فيه سلوكه.

ويعترف الإنسان بفضل وجوده لله وحده الذي خلقه وصوّره لحكمة إلهية سامية، وهي أن يعبده ويطلب رضاه بالخضوع الكامل لمشيئته، ومن أسباب كسب رضا الله سبحانه وتعالى أداء الإنسان لواجبه نحو بني جنسه، ولعلّ من أهم واجبات الإنسان القضاء على عناء هذه المخلوقات أو محاولة تخفيف هذا العناء (إن أمكنه ذلك) والقدرة على تخفيف العناء عن بني البشر هي ما امتاز به الطبيب على غيره من أصحاب سائر المهن الأخرى.

الأسس الخُلُقِيَّة للعلاقة بين الطبيب والمريض:

يعتمد وجود الحياة وبقاء الكائنات الحية على التواصل والتكاثر. والطب الذي قد عرف على أنه «فن إصلاح الصحة وحفظها» يعتمد اعتماداً أساسياً على القدرة والاتصال مع المريض (لفهم شكواه أولاً ثم لشرحها وشرح العلاج له ثانياً). ولأنَّ الجوانب المادية والجوانب الروحية مكملة لبعضها البعض، فالمرض والسقم[1] يقلق الحياة المادية والحياة الروحية إلى حد سواء، ومن ثم فإن العلاج الأمثل لأي مرضٍ يتطلبُ تقييماً وافياً لحالةِ المريض البدنية والنفسية، ولذلك يجب أن يكون الطبيب واعياً ومدركاً لميول وقناعات المريض العاطفية. وعلى الطبيب أن يكتسب شخصية معتدلة بأن يكون رزيناً، وهادئاً، طيباً وحازماً، عطوفاً دون تنازل عن المبادئ، لطيفاً ودوداً دون تملق، وأن يكون ملتزماً منضبطاً ولكنه سهل الجانب. وإذا كانت أسمى صور التراحم بين بني البشر هي علاقة الأقرباء (صلة الرحم) فهي أفضل مثل يحتذي به الطبيب في علاقاته مع مرضاه وأقاربهم، وتأتي هذه العلاقة بأنْ يكون الطبيب نقياً عفيفاً دائماً، وأساس هذه الفضائل فيما يختص بالطبيب هو الاستقامة والصدق (مع نفسه والمريض وأهل المريض) ومن فضيلة الصدق تنبع فضائل النزاهة والكمال والثقة بالنفس.

ومن نافلة القول أن الجوانب المادية والروحية للحياة مكملان لبعضهما

---

(1) حلل الكاتب اللفظ الإنجليزي الذي يعنى المرض disease إلى شطرين dis-ease بمعنى انعدام الراحة 235.

البعض، ولا يمكن الفصل بينهما في حالة المرض يدعم الوجود الروحي للإنسان الجانب المادي منه ويسنده. لذلك يجب ألاً يكون هدف الطبيب من العلاج إصلاح الجسد وشفاءه فحسب، بل يشمل الروح باهتمامه أيضاً. وفي واقع الأمر فإن النفس القوية هي التي تمنح العزم لتحمّل الضرر والألم الناتجين عن إصابة الجسم المادية. وشفاء الجسد والروح المتضررين لا يتأتى في آن واحد إلاّ من خلال مقدرة الطبيب المعالج على ممارسة فن الاتصال بالمريض والتفاهم معه. وعلى الطبيب أكثر من أي شخص آخر أن يدرك دوره في الحياة والهدف من ممارسة عمله.

وإذا كان الدين قد مورس بطريقة طقوسية، بل خرافية في بعض الأحيان، فإنَّ الأثر العملي والواقعي للدين على مسار الحياة يعيش الآن صحوةً جديدةً، في المجال الطبي صارت النظرة الشمولية الواسعة للمريض التي تحتوي الجسد والروح معاً بصورة متكاملة تلقى قبولاً وتقديراً أكثر. وفي هذه يجد الدينُ موقعاً مركزياً كأساسٍ لأخلاقِ الممارسة الطبية.

يجيب القرآن الكريم في الآية 56 من سورة الذاريات عن السؤال الجوهري عن الهدف من الحياة والوجود البشري. يقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ والعبادة كما وردت في هذه السورة الكريمة تشمل الإخلاص الحقيقي دون شك أو تردد لله، مع الخضوع والاستسلام الكامل لمشيئته تعالى، ولما كانَ الله تعالى قد خَلَق البشر في أحسن تقويم، فإنَّ عليهم أنْ يتحلّوا بأحسن الصفاتِ التي يمكن للبشر أن يتصفوا بها ولعل العبادة تعني أن يحاولوا جهدهم الإتّصاف بهذه الصفات الحسنة إلى أقصى قدر مستطاع تمكنهم إياه قدرتهم البشرية المحدودة. وقدرة الله تعالى الواسعة وغير المحدودة بعداً وقوة وشمولية تتجلى في صفات مخلوقاته المختلفة، وإذا كان الإنسان هو أكرم مخلوقات الله فإن ملكاته يجب أن تظهر من خلال تفاعله مع المخلوقات الأخرى، ويتبع هذا أنَّ العبادةَ الحقيقيةَ تستلزمُ توظيفَ الإنسانِ لكلِّ حواسهِ وملكاتهِ لخيرِ بني جنسهِ منَ البشرِ والأخذ بالحسبان صالح البشر جميعاً وخدمتهمْ مع مراعاة منحهم الحب والكرامة والتقدير. وفي مجال السعي

للوصول إلى الهدف السامي للحياة فقد تحصل الطبيب على موقع ممتازٍ وفرصة فريدة في المجتمع لينفتح أمامه الطريق للوصول إلى أعلى درجات الفضيلة في الشخصِ والمسلكِ والتحضُرِ ونفعِ الغيرِ للوصول إلى درجةٍ تقربُه من بني جنسهِ. وفي الآية 90 من سورة النحل يحدد القرآن الكريم درجات العلاقة بين البشر بعضهم بعضاً حيث يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. وهنا يربط القرآن الكريم الحثّ على درجات الفضيلة المختلفة بالنهي عن درجات الرذيلة المختلفة. وأول درجات الفضيلة هي العدل والمساواة ومنها يشتق أن أردَّ لكَ مِثلما تعطيني. وأعلى منها درجة الإحسان وهو أني لا أردُّ لك مثلما تعطيني فحسب، بل أزيدك عليه أكثر مما هو مستحق لك، وهو بمثابة عربون التقدير والود مني وأسمى هذه الدرجات هي درجة القربى (صلة الرحم) بمعنى أنني لست عادلاً وودوداً فحسب بل إني أعاملك كأنك قريب تربطني به رابطة الدم. وهذه من أقوى درجات الفضيلة وهي موجودة منذ قديم الزمان في قسم أبقراط الطبي[2].

وكما سبق آنفاً فقد عرف الطب على أنه «فن إصلاح الصحة وحفظها» كما جاء في قاموس أكسفورد الموجز. والفن يعني الإنجاز الماهر للعمل وهذا هدف بحد ذاته. فالعلم والمعرفة بدون القدرة والمهارة على استعمالهما يكونان ترفاً بل مضيعةً. وقد حذر كونفيوس قديماً بقوله «إنما الأساس في تحصيل المعرفة لأجل تطبيقها». ولا يمكن تحقيق الاستغلال السليم للمعرفة إلاّ من خلال العقل والحكمة. فلكي يكون العلم نافعاً ومفيداً لا بد أن يسنده فن المهارة في التطبيق كما ذكر آنفاً. وممارسة مهنة الطب تستلزم اتباع أسلوبٍ منظمٍ وماهرٍ للوصول به إلى غايته. والخطوة الأولى ولعلها الخطوة الأهم هي اكتساب المعرفة عن المريض من الناحيتين البدنية (الجسدية) والنفسية (أو العاطفية). وفهم الناحية الثانية يعتمد بالضرورة على فهم الحالة الروحانية للمريض. وهذا لا يتأتى إلاّ إذا

(2) قسم أبقراط وفقاً لترجمة حنين بن إسحاق كما ورد في (عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة).

امتلك الطبيب المعالج مهارة القدرة على التفاهم مع المريض. وتسجيل تاريخ المرض يعتبر عملاً مهنياً داخل إطار اتصال ذي محتوى اجتماعي؛ لأنه حين يتجاذب الطرفان الحديث يتطلب من الطبيب الاهتمام والإصغاء وإبداء التفهم والتعاطف مع المريض لكي يوحي له بتلك الدرجة من الثقة التي تجعله يعتقد أنَّ هذا الطبيب هو الوحيد الذي سيكون مخلِّصه ومنقذه.

والحالة الروحانية والعاطفية للمريض هي التي تحدد درجة تأثره بمرضه. لذا فالضيقُ الذي يسببه مرض ما والأعراض البدنية الناتجة عنه تختلف من مريض إلى آخر. ولا يمكن للطبيب أن يتفهم إحساسات المريض العاطفية إلاَّ إذا كان هو نفسه مدركاً لميوله وقناعاته الذاتية. ويجب أن نتذكّر أنَّ المريض يود أنْ يرى ويستشعر أنَّ معالجه يتضوع بكل الفضائل السائدة مهما تكن حالته هو الأدبية والخلقية. ولكن الفضائل ما هي إلاَّ هبة ربانية ولا تكتسب إلاَّ بالتوسل والتضرع إلى الله.

تعتمد ميكانيكية التفاهم والاتصال بين الطبيب والمريض على الاستغلال الكامل للحواس الخمس (البصر، السمع، اللمس، الشم والتذوق). ويجب أنْ نستذكر أنَّ الأطباء القدامى قد تذوقوا فضلات المرضى في الماضي السحيق. ولا يقتصر الاتصال بين الطبيب والمريض على مجرد تبادل شفوي لبعض الأفكار بل إنَّ التفاعل (الذي تحدد درجته كل الحواس المشتركة فيه) يبدأ بالنظرة الأولى التي يلقيها الطبيبُ على المريض. فالطريقة التي يستقبل بها الطبيب المريض ويصغي بها إليه ويلمسه ويحركه بها كلها تشكل جزءاً من هذا الاتصال بين الطبيب والمريض. وقد ينشغل المريض في بعض الأحيان بالطريقة التي أصغى الطبيب بها إليه أكثر مما ينشغل بالتشخيص النهائي. ولعل أكثر ما عانته العلاقة بين الطبيب والمريض (حديثاً) كان في فن الإصغاء إلى المريض بسبب عوائق كثيرة حالت دون تحقيق هذا الهدف منها السرعة وقصر الوقت والحواجز الاجتماعية والثقافية واللغوية.

ومهما يكن الأمر فإنَّ على الطبيب أنْ يكون معالجاً تحت كلِّ الظروف وأنْ يدرك أنَّ كلاً من سلامة التشخيص والتزام المريض بالعلاج يعتمد أساساً على التفاهم المتبادل بين الطبيب والمريض.

ويجب أنْ يكون الطبيب مديناً في مجال العلم والمعرفة لمرضاه. لأن معرفة الاختلافات في طرق ظهور مرض ما وأعراضه المختلفة بين شخص وآخر لا يأتي إلاّ بالإصغاء إلى المريض. وكما قال الطبيب الإنجليزي وليام أوسلر «أصغِ إلى المريض إنه يعطيك التشخيص».

والجدير بالذكر أنَّ المعرفة والحكمة ليست مفردات كلمة واحدة. ولكنها الحكمة التي تؤهل للتطبيق الصحيح والنافع للمعرفة. وبحر الحكمة يزداد عمقاً كلما مرت تيارات الخبرة بحياة الإنسان. والخبرة هي محصلة البحث في النفس والشخصية المتحلية بالتحليل والنقد والرقابة والحاسبة الذاتية. مثل هذه الشخصية تمكن الفرد من التعلم من أخطائه وقصوره وقلة إدراكه لبعض الأمور. وأن يراقب الإنسان أخطاءه ثم يتغلب عليها فتلك هي الطريقة الصعبة للتعلم. ولما كان الخطأ والنسيان من صفات البشر جاء الاستغفار وطلب الرحمة حماية ووقاية للبشر من الله سبحانه وتعالى. وكذلك فمن الحكمة أن يدرك الإنسان حدود وقصور معرفته وعلمه.